

أهو طفلي أم ابن حماتي؟



«لا أظنّ أنّ بيننا كلاماً كثيراً.. هي حماتي وأنا زوج بنتها الصغيرة.. كنت قد نويت أن نعيش في شقّة نستأجرها على قدر إمكانيّاتي.. ابني فيها حياتي مع عروسي.. من دون رقيب ولا وّجّع رأس؛ لكنّ والدّة سلمى أصرّت على أن نساكن عندها في البيت الكبير.. توسّلت بي لكي لا تبقى وحيدة.. لقد تجاوزت الستين من عمرها، وقد أشفقت عليها وطاوعتها وتخلّيت عن طرف من كرامتي.. ففي عشيرتي يُسمّون مَنْ يُقيم عند زوجته: (قعيدي).. وهو لقب غير مستحبّ، طبعاً.. القعيدي هو الذي لا يملك أن يفتح بيتاً يتزوّج فيه ويؤسّس عائلة لا تكون ضيفة، إنّ لم نقل عائلة، على الغير.. حتى لو كان هذا الغير أقرب الناس..

سارت الأُمور في البداية على ما يُرام.. ولمّا ظهرت بوادر الحمل على سلمى، تغيّرت تصرّفات والدتها.. إنّها مشغولة بالطفل المقبل وكأَنَّه طفلها، تشتري له الثياب وتُجهّز له لوازمه وسريره وحوض استحمامه وحتى ألعابه وسياراته الصغيرة، بل إنّ حماتي صارت تتصرّف وكأنّها هي المرأة الحبلى، ونراها أحياناً تشتهي عنباً أسود، أو زيتوناً، أو طبخة محشي ورق عنب في آخر الليل، مثل مَنْ تتوجّه وتخشى أن تظهر بقعة سوداء على خد المولود، إذا أنا لم ألبّ طلبها وأنزل لكي اشتري لها العنب.

مع تَقَدُّم ابنتها في أشهر الحمل، زادت لَجاجَة حماتي وصارت تُقلقني كثيراً.. أنزعج حين تطلب من سلمى أن تنتقل للنوم معها في غرفتها، بحجّة الاعتناء بها ورعايتها في أشهرها الأخيرة.. وقد انزعجت واضطرت إلى رفع صوتي حين قررت حماتي أنّ المُنْعاشرة الزوجية تُسبّب الإجهاض.. هل تنصوّرنني وحشاً من دون لياقة أو رجلاً أرعَن جِلْفاً يُمكن أن يقوم بممارسات تؤذي زوجته الحامل بطفله؟ بصراحة، لم أعد أعرف ابن مَنْ سيكون الولد، طفلي أم لعبة حماتي.

إنّ والدتي تتشائم من شراء لوازم الوليد قبل استكمال أشهر الحمل؛ لكن والدّة زوجتي لا تسمع أي رأي غير رأيها، ولا تُقيم وزناً لما تنصح به أو تقترحه والدتي.. وأنا أخشى أن تنتهي الأُمور بنزاعٍ

وخلاف أظطر معه إلى مغادرة البيت الذي نُقيم فيه ضيوفاً ننصاع لأوامر صاحبه.. وكلّ هذا التوتر يؤثر في سلمى وفي صحّتها، وعلى سلامة طفلنا المنتظر.. إنّها صاحبة القرار.. فإمّا أن تواجه والدتها وتضع حدّاً لتدخلاتها، وإمّا الرحيل إلى بيت لنا وحدنا.

- لن يسلبني فرحة آخر العمر:

ما كان يمكن لي التفريط بسلمى، صغیرتي وآخر العنقود.. لقد رحّل أبوهم للقاء ربّه، وتزوَّج الكبار كلّهم وبقيت حبیبة أمّها، تؤنس وحدتي وتملأ علیّ البيت وأسمع منها صوتاً یُحدثني لكي لا أبقى بمفردي، أتكلّم مع نفسي ومع التلفزيون والتليفون.. لذلك، حين جاء ابن الحلال يطلب يد سلمى، كان شرطي واضحاً لا يقبل النقاش: إمّا أن يأتي ليقیم معنا، أهلاً وسهلاً به، أو مع السلامة، لیبحت عن نصیبه خارج هذا البيت.

وافق العريس لأنّه كان مُعجباً بابنتي. وأغلب الظن أنّه كان یحبّها.. أمّا هي فلم تقل لي شيئاً سوى أنّه تراهُ مناسباً لها وطيّباً وقريباً من القلب. وبعد شيء من التفاهم وافق علی شرطي، وقال إنّهُ یعتبرني بمثابة والدته وليس من شیء الرجال أن یترکني أعیش بمفردي.. وقد كان الحل في رأيه، أن يأخذني لأقیم في الشقة التي ینوي استئجارها بعد الزواج.

لم اتعوّد السكن في الشقق والعمارات التي تجمّع أشكالاً من الأعراب، ثمّ إنّ ولدي الكبير أولى بي، غیر أنّني لم أکن أتفاهم مع زوجته، لذلك بقيت في بيتي مادام أنّ سلمى كانت معي، وقد وعدتني بألا تُفارقني وبألا ترتبط إلاّ بمن یوافق علی العیش في بيتنا الكبير الذي يتسع عائلات عدّة.. وهكذا كان.. لذلك كانت فرحتي مضاعفة بزواج صغری بناتي.. هي سعيدة بمن تريد وأنا سعيدة بهما.. سعادتي زادت وبلغت الأوج عندما عرفت أنّها تنتظر مولوداً.

هذا الطفل سینعش حیاتي ویُعيد روح الحیاة ومخّبها إلى منزلي الكبير الهادئ الصامت.. صحیح أنّهُ ليس أوّل أحفادي؛ لكنّه المولود الذي سیتربّى في حضني، وكأنّهُ ولدي.. لماذا یستکثر علیّ أبوه هذه الفرحة؟ ینظر إليّ باستنکار وأنا اشتري ثياب الطفل وأؤثث غرفته وأجمع ألعابه.. كأنّ نظراته تتهمّني بأنّني أخطف طفله منه.. وأنا لا أحبّ الجحود، ولن أسمع لسلمى بأن تُغادر هذا البيت مهما حدث.. لن يسلبني زوجها فرحة آخر العمر ویدفنني وأنا مازلت حیّة أتنفّس.►